الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية

لقاسم السامرائي

السامرائي، قاسم / الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية.ـ الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣م،

وصف عبد العزيز الرفاعي مؤلف هذا الكتاب فقال إنه «أحد الرجال القلائل الذين عنوا بالاستشراق والمستشرقين وتتبع أخبار هذه الظاهرة الخطيرة التي كانت بعيدة الأثر في حياتنا معاشر العرب والمسلمين.. بل هو يعد فيها أحد الخبراء النوادر، فقد قضى في معاقل الاستشراق ردحاً من الزمن غير يسير .. أتاح له أن يطلع على كثير من حقائق الحركة الاستشراقية». (ص ٦). ويؤكد هذه الخبرة اللصيقة للمؤلف بالاستشراق، بجانب مادة كتابه، المعلومات التي صاغها على غلاف هذا السفر حيث يشير الى عمله بقسم الدراسات الشرقية بجامعة ليدن في هولندا، وفي كلية اللاهوت هناك. كما أنه حضر في تلك البلاد الغربية وشارك في عدة مؤتمرات فلسفية واستشراقية. والمتابع لمقدمات قاسم السامرائي الملحقة بالكتب التي حققها مثل «الإنباء في تاريخ الخلفاء» لابن العمراني و«كتاب القصاص والمذكرين» لابن الجوزي، يلمس هذا الاحتكاك المباشر للمؤلف بالمستشرقين ومنجزاتهم.

ولما كانت أجواء البحوث الاستشراقية في الحيز الأكاديمي مشجعة للأبحاث المنوعة التي تتخذ أشكالًا متعددة في المطابع ومتقاربة في بعض مواضيعها، فقد توفرت للكاتب عدة مواد يحويها حيز مفرد هو الاستشراق. وهذه المواد تكون الفصول الثلاثة الأساسية في هذا المؤلَّف. وقد لا يصدق على كتاب السامرائي الملاحظة السابقة، وعندئذ لا يملك المتمعن في تراكيب فصوله الثلاثة إلا الاستسلام لما فيها من تباعد نسبي وسنحاول في الصفحات التالية أن نعرض لبعض النقاط التي أوردها المؤلف مع التعليق عليها بشكل مختصر يقدم صورة للقارىء عن هذا العمل العلمي الذي بذل فيه المؤلف جهداً طيباً.

أ ــ الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية :

القسم الذي يحمل هذا العنوان من كتاب السامرائي هو أطول مواضيعه وأكثرها طموحاً وتشعباً. تناول فيه مجموعة من المواضيع ذات العلاقة بقضية الاستشراق من خلال نقاش لآراء بعض المستشرقين وممن كتب عن الاستشراق، فتحت العنوان الرئيسي هذا جمع الكاتب تسعة عشر موضوعاً فرعياً. الموضوع الأول (صفحتان) نقد لاستشراق كارلايل، والثاني (أربع صفحات) ينقد فيه عرقية ارنست ريناني وإتباع نجيب العقيقي وغيره من أوهامهم بشأن ريموند لول له. والموضوعان الثالث والرابع يغوصان ثانية في أوهام كارلايل وريتان ومحمد حسنين هيكل (كمقابل لأوهام نجيب العقيقي). ويستعرض السامرائي في ست صفحات ما يقال عن منطلقات الاستشراق فيذكر هنا مسببات معينة مثل التعارك الاسلامي المسيحي بالأندلس، والصراع الفكري بينهما، والدافع الاستعماري، والخلفيات التجارية والاقتصادية. ثم يرى السامرائي أن كل هذه الأقاويل فيها شيء من الصحة.

الموضوع الخامس عن ظهور لوثر يفتح المجال للنظر في أثر الرشدية على اوربا المسيحية وما ساقت اليه من خروج على البابوية. وهذا هو الموضوع المتكرر باطراد في كتاب السامرائي ولكن بصورة متقطعة. فالموضوع السادس تتركب عليه المواضيع من السابع الى الخامس عشر. وتهديد الانفتاح العقلي (الذي تدعو اليه الرشدية) للسلطة البابوية والتسلط الكنسي ظهر كما يقول السامرائي في الحركات التي قادت الى الاصلاح الديني بأوربا، وفي نفس الوقت جاء رد الفعل المؤسساتي الكنسي على هذا

التهديد واضحاً في دمويات الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وطرد بقايا المسلمين من الأندلس والعداء الإجمالي للإسلام وبالتالي محاولات النيل منه بشتى السبل. ورغم أهمية هذا التأريخ لخلفيات العداء المسيحي للإسلام فإن جذور نشأة الاستشراق الطالع حتماً من هذه الخلفيات لم تنل من الكاتب الاهتمام الذي تستحقه. وقد يلاحظ القارىء أن المواضيع الواقعة بين السابع عشر والعشرين من هذا القسم كانت تلمس علاقة التغيير بالاستشراق والمفاهيم الخاطئة للغرب عن المسلمين وتشويه الترجمات المبكرة لمعاني القرآن. لكن هذه المسائل لم تجعل للشرق من حصيلة الاحتكاك الغربي ــ الشرقي بياناً وافياً بردود الفعل. فما هو حجم الرد المسيحي على الرشدية، بعيداً عن موضوع العداء؟ وإلى أي حد سار الاستشراق الحديث والمعاصر على آثار الرؤيات الاستشراقية المبكرة في الغرب المسيحي، تلك التي عبر عنها بدقة نورمان دانيال في كتابه (الإسلام والغرب)؟ فلربما كانت الإجابة على ما يشبه هذين السؤالين هو الذي ينقذ معالجة السامرائي للخلفيات المسيحية الغربية عن الاستشراق من التوقف عند أذيال القرون الوسطى حيث تنشأ جذور التنافر الغربي ــ الشرقي.

ب ــ تأثر علماء الغرب بالعلوم العربية والاستفادة منها :

يمكن اعتبار المواضيع الخمسة المكونة لهذا القسم تطويراً لموضوعين مهيمنين على القسم السابق وهما أثر الرشدية على الغرب المسيحي وظهور الاستشراق في ثنايا الدعوة إلى تنصير الشرق. والكاتب لم يحاول أن يجعل لهذا الاستمرار الملاحظ بين القسمين جسوره الجدلية الواضحة. فالانتقال بالقارىء من قسم إلى آخر، ومن موضوع إلى غيره، يأتي بصورة غير استطرادية وتفتقر إلى التمهيد والتلميح أو التصريح بنشوء هذا من ذاك. وبذلك فإن الموضوع الأول في الفصل الثاني هذا يتكلم عن **«تسرب التحرر الفكري»** من العالم الاسلامي كله إلى أوربا في القرون الوسطى إجمالاً كي يبرز دور الأندلس كمعبر ثقافي مثير للجمود الكنسي الأوربي. وتبدو محاورة السامرائي في هذا الحيز أشبه ما تكون بالدفاع عما يشغل كثيراً أذهاننا في المشرق وهو القول بأن:«لكل أمة دور تقوم به في إغناء التراث الفكري الإنساني في حقبة من التاريخ» (ص ٧٧). وذلك أمر لا جدال حوله وبالتالي لا يجوز لنا أن نضيع العمر نكدس الدلائل على ما أعطينا لأوربا وحضارتها في مجلد يتبع مجلدا.

ويعود الموضوع الثاني من هذا الفصل إلى «أثر ابن رشد وفلسفته في الفكر الأوربي». لقد تمت إبانة خطر العقلانية الرشدية على ممارسات الكنيسة المسيحية وعقائدها بشكل مؤثر في هذه الفقرة وصاحبتها «الصراع بين الفلسفة الرشدية والكنيسة» و«ابن رشد في نظر خصومه». وهنالك إنارة رائعة لتصوير العقلانية الاسلامية عامة في أوربا كمذهب شيطاني ومدى ما بذل كبار المفكرين الغربيين مثل بترارك وتوما الأكويني وروجر بيكون لأجل إضعاف أثر هذا الخطر على العقائد المسيحية. ويُحمد للسامرائي ربطه هذه المجهودات الغربية بنشأة المزيج الأول من التبشير والاستشراق خاصة في محاولات ريموند أوف بينافورت والراهب ريموند مارتيني وريموند لول الميورقي غزو الإسلام بتعلم لغته والسعي لتنصيره. لكن التعجل كان محبطاً لمطامح المؤلف ها هنا. فهو يكتفي بالتوقف بين القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلادي كما يقول «ومن هذا يظهر أن الاستشراق الأوربي الفعلي بدأ تبشيرياً محضاً واستمر يحمل هذه السمات عند الكثير من المستشرقين ومن تبعهم من المبشرين حتى اليوم» (ص ٩٧).

لعل مما يلاحظ في هذا المجال أن المؤلف لم يذهب أبعد مما ذهب اليه نورمان دانيال في تصويره لجذور التحامل المسيحي الغربي على الإسلام. هذا جانب. والجانب الآخر هو أن السامرائي بهذه العبارة قد وقع في شيء من التناقض، فهو يصرح، كما أسلفنا، في القسم الأول من دراسته هذي **بأن المسببات الاقتصادية والاستعمارية للاستشراق** فيها وجهة حق (ص ٢٤). ولعل الكاتب يعني دور الرحالين والفنانين بدوافعهم الشاذة في ذهابهم إلى الشرق والكتابة عنه، ونعني الرسامين وكتاب القصة والشعراء مثل نرفال وفلوبير وشاتوبريان وغيرهم ممن صاغ دورهم الاستشراقي إدوارد سعيد **ببراعة في كتابه الشهير**. فإذا كان كتاب السامرائي أساساً عن بدايات «الاستشراق الأوربي الفعلي» كما يسميه فإن عنوانه يضع مؤلفه في موقف صعب وهو اكتفاؤه بالبحث عن الجذور بدلاً

من التقدم بموضوعه خارج دائرتي العداء العقائدي بين الشرق والغرب وأدوات الاستعمار والتبشير الفكرية في غزو الشرق.

ج ــ الفصل الثالث :

يُستهل هذا القسم بموضوع عن «الاستشراق في هولندا» وما كتب حوله. وينتج عن استعراض الكاتب لأعلام المستشرقين الهولنديين تباينهم بين المهاويس تبشيرياً والمتفانين في نشر النصوص العربية سليمة ما أمكن ذلك (ص ١٠٤). ثم يؤكد السامرائي استمرارية الكثير من التحيز ضد الاسلام في الاستشراق المعاصر بهولندا. ويمثل الموضوع الثاني في هذا القسم تكملة لما سبقه إذ يجيء عن «التيارات الاستشراقية في هولندا». هنا يصل المؤلف إلى الاعتقاد بأن تلك التيارات تجمعها شعبتان: «تيار يحمل مفاهيم القرون الوسطى بكل سماجتها وتعصبها الجاهل البغيض، وتيار اتخذ صبغة العلمية الأكاديمية التي تمردت على بعض مفاهيم القرون الوسطى حول الاسلام وتراثه» (ص ١٠٦). وخاتمة هذا الموضوع القصير (صفحتان) تأتي في مجموعة تعليقات عن نبرة الاستعلاء الغربي في الفكر الذي تربى تحته الاستشراق.

يلي هذين الفصلين موضوعان صغيران متماثلان هما «مصطلح الاستشراق» و«دوافع الاستشراق». أما الموضوع الأول فلعله تنوير يكمل موضوع «ما هو الاستشراق؟» الذي يجيء في القسم الأول من الكتاب. ويمكن النظر إلى الموضوع الثاني الخاص بالدوافع كتنوير للموضوع التالي، للعنوان الاستفساري السابق في القسم الأول، وهو «نشأة الاستشراق». فقد يلاحظ التماثل بين هذه الفصول الأربعة في وحدة مادتها ودورانها حول قضايا مشتركة وبصورة ملفتة. ثم يبدأ بالموضوع الرابع من هذا القسم النقاش حول زيف كرستيان سنوك هورخرونيه، وهو أمر يأخذ المؤلف خلال فصلين صغيرين يكملان وينهيان كتاب (الاستشراق) للسامرائي. وهذا القسم من الفصل الثالث هو أكثر المواضيع إثارة في كتاب السامرائي بعد موضوعة الرشدية ودورها في تكسير اللاعقلانية الكنسية في الغرب. ثم إن موضوع سنوك هورخرونيه يدخل في صلب النقاش الدائر حالياً عن دور الاستشراق في مساندة الاستعمار الغربي حتى يفتت المقاومة المعنوية للأمم التي تقع تحت سيطرتها. وهنالك دين كبير يحمله القارىء لإيراد السامرائي الوثائق الدالة على أن الاستغفال الذي يلعبه المستشرقون على الأمم الشرقية بادعائهم الانتماء للإسلام والتزيؤ بلبوسهم والتمشدق بالمعارف المحلية، دينية وثقافية ، كل هذه تساعد المستشرقين كثيراً في تمهيد السبل الاستشارية لوكلائهم من المستعمرين. ولذلك فإن هذه الغفلة المحلية تنال أهمية كبرى خاصة إذا ما قارنا بين هذا الجانب والإشارتين الواردتين عند إدوارد سعيد عن هذه الغفلة. فهنالك في رأي إدوارد سعيد جماعة من تلامذة المستشرقين لا هم لهم إلا نيل الدرجات الأكاديمية من أساتذتهم بالغرب ثم تسويق تلك الآراء نفسها في المشرق حيث يتظاهر هؤلاء بخدمة أوطانهم وثقافاتهم. وهنالك التيار الآخر الذي يبدأ إدوارد سعيد عرضه بقوله «غير أن هذا كله، في اعتقادي، ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق: وهو حقيقة طغيان الإستهلاكية في الشرق. فالعالم العربي أو الاسلامي بأسره عالق في صنارة نظام السوق الغربي» (ص/٣٢ من ترجمة كمال أبو ديب لكتاب **الاستشراق** ــ مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ١٩٨١). وبهذا الحمد لأنجاز الكتاب تنتهي هذه الملاحظات الأولية وهي دون شك لا تقلل من قيمة الكتاب الذي وضعه المؤلف من واقع تجربة وخبرة طويلة استخلصها من البحث والدراسة إضافة إلى معايشة الاستشراق في معاقله بأوربا.